دور المحدِّثين في التأسيس لفن تحقيق المخطوطات في الحضارة الإسلامية

د. عزالدين كشنيط
أستاذ محاضر(أ) بالمركز الجامعي لتامنغست
Azzddn@gmail.com
هاتف/ ٠٥٥٣٣٠٩١٩٩

ملخص البحث

لقد كان منهج نقل العلوم والمعارف من الفنون التي برع فيها المحدثون؛ فأسسوا مبادئه، وأحكموا أبحاثه، وسبروا أغواره، وكانت لهم فيه اليد الطولى، وفضيلة السبق؛ وسبب ذلك أنهم كانوا ورثة النبوة الخاتمة، وحملة الرسالة العالمية، وهم مكلفون بتبليغها كما جاءت، فلمّا كان التبليغ السليم يحتاج في الأنبياء إلى وصف العصمة، كان عليهم ابتكار المنهج المساعد الذي يمكّنهم من القيام بوظيفة التبليغ الآمن لتعاليم دينهم أوّلا، ثمّ استثمروه –بعد ذلك– في نقل تراثهم؛ وهذه ورقة علمية أوجزت فيها الكلام عن معالم هذا الفنّ الذي تولدت عنه تقنيات التعامل مع الوثائق المخطوطة عبر التاريخ الطويل للحضارة الإسلامية، بداية من مفهومه وفلسفته، إلى أسباب ابتكاره، وأهداف التأليف فيه، مشيرا إلى أهمّ وثائقه ومناهجه المبتكرة، وأهم مظاهره المبكّرة في تراث المحدثين، ودور ذلك في التأسيس للمنهج العلمي القويم في عملية التحقيق في نقل التراث المخطوط عند المسلمين وغيرهم.

الكلمات المفتاحية: نقل المعارف – علوم الحديث – تحقيق – المخطوط العربي – تأسيس منهجية.

Cet article et une étude qui vise à présenter la façon des musulmans de créer un système très modéré pour assure la bonne transmission de leur savoir. Et comment sa a créé des techniques scientifiques précieuses pour traiter les manuscrits et son rôle dans la fondation de la méthode scientifique juste dans le processus d'enquête sur le transfert de manuscrit du patrimoine pour les musulmans et les autres.

Mot clé: manuscrit arabe - transmission de savoir – fondation de méthodologie – science de la tradition.

مقدّمة:[1]

لقد خصّ الباري عزّ وجل كل أمة بحظها من أصناف الهداية وادّخر لهذه الأمة أعظم نعمة وأكرم حكمة، فخصّهم بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعله الحبل الموصل إليه من دون كل الحبال، وخصّهم برسول كريم أقدره-بفضله-على حمل ما لا تطيق الجبال.

وكما خصّ الله تعالى هذه الأمة بهذا الكتاب وهذا النبي، فقد خصّهما الله بفضله؛ فانتدب لهما خدما من أسياد الرجال، فهذا يلزم نبيّه بشبع بطنه، وهذان يحملهما شديد الحرصِ على التناوب بين الغرس والدرس لئلاّ يفوتهما من العلم والحكمة فعل أو قول أوحال.

وممّا اختصّ به بعضهم دون بعض تتبُّع التنزيل بالاستظهار في الصدور، والتقييد في السّطور، وقد أمدّ الله تعالى في تلك الثلة ببركته فأحكمت الصنعة، وأمدّت بها من خلفها، حتى أثمرت منهجا فريدا وفنّا جديدا في ضبط نقل النصوص وتحقيقها.

لقد كان نظام نقل العلوم والمعارف من الفنون التي ابتكرها المسلمون، وأسسوا مبادئه، وأحكموا أبحاثه، وسبروا أغواره، وكانت لهم فيه اليد الطّولى، ولهم فيه فضيلة السبق؛ وسبب ذلك أنهم كانوا ورثة النبوة الخاتمة، وحملة الرسالة العالمية، وهم مكلفون بتبليغها كما جاءت، فلمّا كان التبليغ السليم يحتاج في الأنبياء إلى وصف العصمة، كان عليهم ابتكار المنهج المساعد الذي يمكّنهم من القيام بوظيفة التبليغ الآمن لتعاليم دينهم أوّلا، ثمّ استثمروه –بعد ذلك- في نقل تراثهم؛ وذلك ما دفعهم فعليا إلى ابتكار مباحث هذا العلم وابتداع مناهجه، فأنتجوا فيه دواوين عُنيت ببيان أصوله وفلسفته، واعتنت بتوثيق مرويات مشايخ المسلمين المشتغلين بالحديث والعلوم الإسلامية الأخرى.

وسوف أعرض لهذا الموضوع في هذه الورقة العلمية موجزا فيها الكلام عن معالم هذا الفنّ من خلال الكلام عن **مفهومه وفلسفته، إلى أسباب ابتكاره، وأهداف التأليف فيه،** لأركّز بعد ذلك الكلام على أهمّ مظهرين من مظاهر هذا الفنّ؛ أحدهما يتعلّق **بأهم مظاهر الضبط الكتابي المبكّرة في تراث المسلمين**. ويتعلّق الثاني **بأهمّ وثائق الرّواية وأسانيد التراث المعرفي وأنساب الكتب، والمناهج المبتكرة في تدوينها،** وعناية المستشرقين والباحثين المعاصرين بهذا الضّرب من التأليف عند المسلمين.

ليتبيّن في الأخير جليا التراث العلمي الفريد الذي أسهم به المحدثون في المسيرة المعرفية للجنس البشري في هذا الباب.

دواعي ابتكار مباحث هذا الفنّ عند المسلمين:

ونستهل هذا البحث بوقفة وجيزة نستجلي من خلالها جملة من الدّوافع والدواعي التي أسهمت في اهتمام علماء الأمّة من متقدّمين ومتأخرين بمسألة ضبط النقول كتابيا وشفهيا، ليكوّنوا بذلك اللبنات الأولى لفنّ نقل المعارف وعلوم الرواية، وفنّ تحقيق النّصوص وضبطها، وهذا موجز عنها:

١- إنّ أوّل ما نزل من القرآن هي الآيات الخمس من سورة العلق؛ قال تعالى:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾، وإنّ

كتابا يضمّ (٦٢٣٦) آية تتصدّرها كلمةٌ فيها الأمر بالقراءة، وتبتدئ بالإشادة بالقراءة والقلم –آلة الكتابة– والعلم الذي هو حصيلة لهما، كاف في الدلالة على هذا الأمر عند هذه الأمّة.

٢- أَمْرُ النّبي (صلى الله عليه وسلم) بكتابة القرآن والعناية به، بل والاقتصار على كتابته –في أوّل الأمر– دون الحديث، إيحاءٌ قويٌّ ودافع كافٍ لتزاحمهم على سماعه وحفظه وكتابته.

٣- إن ما سبق إنزاله وبيانه من الكتب السابقة قد لحقه التحريف والتغيير، وأُعملت فيه الأيادي والأقلام، وقد قبّح الله تعالى فعل أهل الكتاب بتحريفهم كتبه فقال:﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ﴾(المائدة من الآية١٣)، وقال أيضا يخاطب المؤمنين:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة٧٥)، ومن هذا الواقع المرير وقع في نفوس الصّحابة (رضي الله عنهم) ومن جاء بعدهم حرصٌ عجيب على المحافظة على القرآن الكريم، وعناية فائقة في التدقيق في نقل بيانه المتجلي في السنّة النبوية الشّريفة، فتحريف الأمم السابقة لكتبها، وأقوال أنبيائها، وما استحقوه من الذم والوعيد قد دفع هذه الأمة إلى المبالغة في الاحتراز لنصوص دينها؛ لئلا تقع فيما وقعت فيه تلك الأمم، فسارعت إلى تلقي كتاب ربّها بالحفظ استظهارا وكتابة، والعناية بأدقّ تفاصيله، حتى لم يجرؤ أحد على تغيير الرسم الذي كتب به القرآن بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فضلا عن التغيير في المضمون.

٤- وُرود الكثير من الأحاديث النّبوية في فضل تعلّم القرآن وتعليمه، وكذلك في تبليغ السنّة؛ فمما ورد في القرآن قوله (صلى الله عليه وسلم):"خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه"[٢]، وقوله(صلى الله عليه وسلم):" الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة،"[٣] وقوله:" يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها."[٤] وقوله:" منْ قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها؛ لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف"[٥] وقوله(صلى الله عليه وسلم):"بلّغوا عني ولو آية..."[٦]وغير ذلك كثير.

٥- ومما ورد في فضل حفظ السنّة قوله(صلى الله عليه وسلم):" نظّر الله امرءا سمع مقالتي فوعاها ثم أدّاها كما سمعها، فربّ مبلّغ أوعي من سامع."[٧] ومدحُه(صلى الله عليه وسلم) حملة العلم من بعده بقوله:" وإنّ العلماء ورثة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهما ورّثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر."[٨]

٦- تحذيره(صلى الله عليه وسلم) من الكذب عليه، والتغليظ في ذلك بقوله:"من كذب عليّ متعمّدا فليتبوّأ مقعده من النار"[٩]، وقوله:" من حدّث عني بحديث يرى أنّه كذب فهو أحد الكاذبين."[١٠] والحديث الأول منهما يكفي عن كل ما ذكرناه من الأسباب الدافعة لعلماء هذه الأمّة على التّحرّي والتّدقيق في كل ما تنسبه إلى نبيّها(صلى الله عليه وسلم) من قول أو فعل أو تقرير، والذي نتج من ذلك كله دقّةٌ بالغةٌ في نقل الأحاديث النبوية خصوصا، وآثار السلف عموما، لأن الكذب والتّقوّل على الناس غير جائز في كل حال.

٧- إنّ نصوص هذا الدين أمانة، ونقل بعض هذه النصوص نقلا مهلهلا يذهب بشيء من رونقه فضلا عن أحكامه، وفي ذلك خيانة للأمانة.

٨- ثمّ إنّ وعيَ علماء هذه الأمّة أنّهم يتعاملون مع كلمات الله القدسية ومع الوحي المنزّل جعل مسألة الضبط والتحقيق في نقل تلك النصوص عندهم واجبا دينياً، وقضية مقدّسة.

فالوازع على ضبط نصوص الوحيين، والتّحقيق في نقلهما عند المسلمين كان محايثاً لوجودهما، مستمرّا مع من جاء بعدهم إلى اليوم بحمد الله تعالى.

بعد هذه الممهدات فلنلج الباب، ولْنلق نظرة فاحصة على منهج المسلمين في توثيق نصوصهم وضبطها مبتدئين بنصوص أقدس مقدّساتهم؛ وهو القرآن، ثمّ نصوص كلام نبيهم، ثمّ نصوص باقي معارفهم وعلومهم.

المبحث الأول:- مظاهر ضبط النصوص وتحقيقها في نقل القرآن.

أولا:- مظاهر الضبط في نقل القرآن في العهد النبوي.

إذا كان التحريف قد طال الكتب السماوية السابقة فلأنه تعالى قد أوكل حفظها إليهم فقال:﴿**...بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللهِ**﴾(المائدة من الآية٤٤)، فلمّا تعلّقت مشيئته بإنزال كتاب الأخير الذي جعله الهداية لما تبقى من الزمان تكفّل الله تعالى بحفظه، فجمعه في صدر نبيّنا محمّد(صلى الله عليه وسلم) وحفظه من التبديل وقال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾(الحجر٩).

وقد اقتضت حكمته تعالى -في دنيا الأسباب- أن يهيئ لهذا الجمع وذاك الحفظ أسبابهما؛ فيسّر للنبي(صلى الله عليه وسلم) ثلّة من خيرة أصحابه اتّخذهم كتبةً لما ينزل عليه من الوحي. وأشهر من انتدب لذلك الخلفاء الأربعة وزيد بن ثابت وأبيّ بن كعب، وأبان بن سعيد، وثابت بن قيس، وحنظلة بن الربيع، وخالد بن سعيد بن العاص؛ فكانوا يكتبون القرآن على ما توفر لديهم من العسب واللخاف والرّقاع والأكتاف والأقتاب والكرانيف(١١) وغيرها من وسائل الكتابة آنئذ. وكان النبي(صلى الله عليه وسلم):" إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتبه فقال: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا."(١٢)

والتحق النبي(صلى الله عليه وسلم) بربه والقرآن على حاله؛ قد استظهرته الصّدور، واحتوته السطور، وكان لكل صحابي حظه من الحفظ والكتابة.

ثانيا:- مظاهر ضبط القرآن في العهد الرّاشدي.

لما ولي الصديق (رضي الله عنه) -وكان ما كان من حروب الردّة- عزم على جمع القرآن في مصحف واحد، فانتدب لذلك زيد بن ثابت.

وقد روى البخاريّ القصة كاملة في صحيحه عن زيد بن ثابت، وفيها قوله:" وقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا أتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتتبع القرآن واجمعه، قال زيد: ... فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر التوبة:﴿ **لقد جاءكم** ...الآية مع أبي خزيمة الأنصاري - الذي جعل النبي(صلى الله عليه وسلم) شهادته بشهادة رجلين- لم أجدها مع أحدٍ غيره، فألحقتها في سورتها، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفّاه الله، ثم عند عمر حتى قبض، ثم عند حفصة بنت عمر"(١٣) فكان ذلك هو الجمع

الأول للقرآن، وكان ذلك العمل هو القدر المحتاج إليه في تلك المرحلة، وكان لكثير من الصحابة مصاحفهم الخاصّة كعلي وابن مسعود وغيرهم، مع أنّ جلّ اعتمادهم –حينئذ- كان على حفظهم.

فلما وليَ عثمان(رضي الله عنه)، واتسعت بلاد الإسلام، واعتنقه الأعاجم، دبّ اللّحن إلى قراءة القرآن، فكان ذلك مناسبة لإنجاز المرحلة الثّانية، وهي إعادة كتابة ذلك المصحف، والنسخ منه، وإبطال العمل بغيره، ليكون النسخة الرسمية للعالم الإسلامي، وقد كُتب خاليا من الشكل والنّقط، وتعمّدوا شيئا من التّغاير في رسم بعض النُّسخ لتكون مُحتملة للقراءات القرآنية المتواترة الشائعة في تلك الأمصار.

ولْنتأمّل خلاصة ذلك فيما يرويه البخاري في صحيحه، فقد روى عن أنس بن مالك أن عثمان فزع لأخبار حذيفة بن اليمان(رضي الله عنهما) من اختلاف بعض من رأى في قراءة القرآن، يقول أنس(رضي الله عنه):" فأرسلَ عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا الصُّحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها إليه، فأمر زيد ابن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. قال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم؛ ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل في كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق."(١٤)

وهكذا يكون عثمان (رضي الله عنه) قد درأ مفسدة عظيمة، بجمعه المسلمين على رسم مصحف مجمع عليه.

وهذه –بلا شكّ- عملية تحقيق ثانية كُلّفت بها لجنة أشرف عليها الخليفة الراشد عثمان(رضي الله عنه)، ولم يكن مقصوده فيها مجرّد جمع نصوص القرآن في مصحف واحد، بل تعدّى إلى إرادة جمْع المصاحف في مصحف مُجمع عليه، وجمْع المسلمين على مصحف جامع للقراءات الثابتة عن النّبي (صلى الله عليه وسلم)، وتخليص المصحف من بعض ما اختلط به من تعليق الحفاظ كالقراءات التفسيرية، وما نُسخ لفظه وتمسّك به صاحبه، في مصاحف الصحابة، وغير ذلك.

قال الزركشي:" واعلم أنه قد اشتهر أن عثمان هو أول من جمع المصاحف، وليس كذلك .. بل أول من جمعها في مصحف واحد الصديق، ثم أمر عثمان حين خاف الاختلاف في القراءة بتحويله منها إلى المصاحف."(١٥)

يقول القاضي أبو بكر الباقلاني في كتابه (الانتصار لنقل القرآن) الفرق بين المقصدين في الجمعين:"لم يقصد عثمان قصد أبي بكر في جمع نفس القرآن بين لوحين، وإنّما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي(صلى الله عليه وسلم)، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، **ولا تأويل أُثْبت مع تنزيل، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه،** ومفروض قراءته وحفظه؛ خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعدُ."(١٦)

وتأمّل –رحمك الله- العبارتين (ولا تأويل أُثْبت مع تنزيل، ومنسوخ تلاوته كتب مع مثبت رسمه)، وهو ما يحاوله أهل التّحقيق المعاصرين من الوقوف على آخر ما استقر عليه المؤلِّف في كتابٍ معيّنٍ؛ فقد يمليه مرّةً، ثمّ يمليه ثانيا وثلثا، ويكون آخر تلك النّسخ هي ما استقرّ عليه المؤلف في مسائل الكتاب.

وذلك هو سبب اتّفاقهم على تولية زيد رئاسة تلك اللجنة، لأنّه شهد العرضة الأخيرة التي عرضها النبيّ(صلى الله عليه وسلم) على جبريل عليه السلام، ورُوي أنّ زيدا عرض القرآن على النّبي(صلى الله عليه وسلم) في العام الذي توفاه

الله فيه مرتين كما سيأتي، وهو السّبب في عدم الاعتماد على أبيّ بن كعب(رضي الله عنه) ومصحفِه؛ لأنّه كان يقول: (لا أدع شيئًا سمعته من رسول الله).[١٧]

وقد أجْمل البيهقي مراحل التحقيق الثلاثة فقال:" وقد رُوينا عن زيد بن ثابت **أن التأليف كان في زمن النبي**(صلى الله عليه وسلم)، ورُوينا عنه **أن الجمع في المصحف كان في زمن أبي بكر**، **والنّسخ في المصاحف في زمن عثمان**، وكان ما يجمعون وينسخون معلوما لهم بما كان مثبتا في صدور الرجال، وذلك كله بمشورة منْ حضَرهُ من الصحابة، وارتضاه علي بن أبي طالب وحمِد أثره فيه."[١٨]

ثالثا:- زيادة الاحتياط لكتابة القرآن بالشّكل والنقط.

ثمّ تلا تلك المراحل مرحلة تحلية ذلك النّص المجمع عليه بضوابط أخرى اقتضتها الضرورة، إذ لما كان الرسم العثماني خاليا من الإعجام بالنقط والشكل كان غير الحفّاظ من المسلمين ممن يعتمد على الكتابة عرضة للتصحيف والتحريف، فكان ذلك دافعا لنشأة ضرب آخر من جوانب الضّبط، وهو تشكيل المصحف وتنقيطه، وقد تطور هذا الجانب بين أيادي العلماء حتى ألّفت فيه الكتب الكثيرة أشهرها كتاب (المحكم في نقط المصاحف) لأبي عمرو الداني الذي ذكر فيه ما أثر عن المتقدمين في النقط، ومن ابتدأ به أولا، ومن كرهه منهم، ومن ترخص فيه، إلى غير ذلك مما يُضاف إليه ويتصل به؛ من ذكر رسم فواتح السور، ورؤوس الآي، والخموس، والعشور، ومن أبى ذلك، ومن أجازه.[١٩]

فنقل أبو عمرو بسنده عن الأوزاعي أنّه قال:" سمعت يحيى بن أبي كثير يقول: كان القرآن مجردا في المصاحف، فأوّل ما أحدثوا فيه النقط على الياء والتاء، وقالوا: لا بأس به؛ هو نور له، ثم أحدثوا فيها نقطا عند منتهى الآي، ثم أحدثوا الفواتح والخواتم."[٢٠]

وقد اختلفوا في أوّل من نقط المصاحف للناس؛ فقيل: يحي بن يعمر وقيل: نصر بن عاصم الليثي بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي[٢١]، والأشهر أنّه أبو الأسود الدّؤلي؛ فقد روى الداني عن سفيان الثوري أنّه سمع أبا عبيدة معمر بن المثنى يقول:" أول من وضع النحو أبو الأسود الدولي ثم ميمون الأقرن، ثم عنبسة الفيل، ثم عبدالله بن أبي إسحاق."[٢٢]

قال أبو عمرو الداني:"وكل هؤلاء قد نقطوا، وأخذ عنهم النقط، وحفظ وضبط وقيِّد وعمل به، واتبع فيه سنتهم واقتدى فيه بمذاهبهم."[٢٣]

قال أبو عمرو:" يحتمل أن يكون يحيى ونصر أول من نقطاها للناس بالبصرة وأخذا ذلك عن أبي الأسود إذ كان السابق إلى ذلك والمبتدئ به وهو الذي جعل الحركات والتنوين لا غير."[٢٤]

وأما كيفية ذلك فقد رووا عن أبي الأسود الدؤلي أنّه لما عزم على نقط المصحف اختار له كاتبا حاذقا وقال له: خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره.[٢٥] ثمّ انتهى ذلك كله إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، فزاد فيه قال الداني:"جعل على الحرف المشدد ثلاث شبهات، وأخذه من أول شديد، فإذا كان خفيفا جعل عليه خاء وأخذه من أول خفيف. وقال أبو الحسن بن كيسان قال محمد بن يزيد: الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل، وهو مأخوذ من صور الحروف؛ فالضمة

واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف، لئلا تلتبس بالواو المكتوبة. والكسرة ياء تحت الحرف. والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف." (٢٦)

وقد نقل أبو عمرو بسنده عن الأوزاعي عن قتادة أنّه كان يقول:" بدؤوا فنقطوا ثم خمّسوا ثم عشّروا."(٢٧) ثم قال:" هذا يدل على أن الصحابة وأكابر التابعين رضوان الله عليهم هم المبتدئون بالنقط ورسم الخموس والعشور؛ لأن حكاية قتادة لا تكون إلا عنهم، إذ هو من التابعين، وقوله (بدؤوا إلى آخره) دليل على أن ذلك كان عن اتفاق من جماعتهم، وما اتفقوا عليه أو أكثرهم، فلا شكول في صحّته، ولا حرج في استعماله، وإنما أخلى الصدر منهم المصاحف من ذلك ومن الشكل من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السعة في اللغات، والفسحة في القراءات التي أذن الله تعالى لعباده في الأخذ بها، والقراءة بما شاءت منها فكان الأمر على ذلك إلى أن حدث في الناس ما أوجب نقطها وشكلها..."(٢٨)

والذي نخلص إليه من هذه المراحل :-

- إذا علمنا أنّ المقابلة أو معارضة هي أهمّ مظاهر فنّ تحقيق النصوص وضبطها، وهي: عرض المسموع أو المكتوب على أصله من سماع أو كتابة، فإنّنا نجد المثال المحتذى في ذلك واضحا فيما نُقل عن النّبي(صلى الله عليه وسلم) أنّه " كان يعرض القرآن على جبريل في كلّ سنة مرّة، فلمّا كانت السّنة التي قُبض فيها عرضه عليه مرّتين."(٢٩) فكان ذلك أول عرض للمسموع على أصله المسموع في الإسلام.

وقد حالت أمّية النّبي(صلى الله عليه وسلم) -لحكمة ربّانية- دون مباشرته كتابة القرآن بنفسه، وننبّه ههنا إلى أنّ سماعه(صلى الله عليه وسلم) من جبريل (عليه السلام) كان سمعا واعيا كما هو واضح في عبارته الشريفة في وصف كيفية الوحي"فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال.."(٣٠) وهو ما يُشترط في العارض في المقابلة.

فإذا تجاوزنا ذلك العرض إلى ما بعده وقفنا على عرضٍ ثانٍ؛ وهو ما كان يقوم به كتبة الوحي من قراءة ما كتبوا على النّبيّ (صلى الله عليه وسلم) عند الفراغ من كتابة ما أملاه عليهم مما نزل من الوحي؛ وههنا نصّ يتوجّب علينا إيراده هنا والتأمّل فيه والتعليق عليه لما فيه من تصوير لتفاصيل عمل أحد أولئك الكتبة وهو زيد بن ثابت، فقد نُقل عنه قوله:" كنت أكتب الوحي عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وكان إذا أُنزل عليه أخذته برْحاء شديدة، وعرق عرقا مثل الجمان، ثم سريّ عنه، فكنت أدخل عليه بقطعه القتب أو كسره، فأكتب وهو يُملي عليَّ، فما أبرح حتى تكاد تنكسر رجلي من ثقل القرآن وحتى أقول لا أمشي على رجل أبدا، **فإذا فرغت قال: اقرأه! فأقرأه، فإن كان فيه سقط أقامه،** ثم أخرجُ به إلى الناس."(٣١)

وفي هذا النّص فوائد يحسن التنبيه عليها؛ منها **أنّ الكتابة كانت مُزامنة للنّزول،** ومنها **أن الكتابة كانت بين يدي النّبي**(صلى الله عليه وسلم) **ومن إملائه،** وأنّه **كان يأمر الكاتب بقراءة ما كتب بعد فراغه ليقيم ما يقع في الكاتب عادة من السقط أو السهو،** ثمّ يُبلّغ للناس. وليس لما ذكره زيد رضي الله عنه هنا من تسمية تصدق عليه سوى تسميته بالعرض على الشيخ أو قل هي المقابلة عينها.

وقد ذكر أبو عبد الرحمن السّلمي(**رحمه الله**) أنّ زيد بن ثابت(رضي الله عنه) كان قد قرأ على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) في العام الذي توفّاه الله فيه مرّتين.(٣٢) وذلك ما ميّز زيداً عن غيره من كتبة الوحي، فقد شهد العرضة

الأخيرة التي تجلّى فيها النصّ القرآني في هيئته النهائية؛ وذلك ما دعا أبا بكرٍ (رضي الله عنه)، أن ينتدبه لجمع نصوص القرآن المكتوبة، مع عرضها على ما استظهروه من صدور الحفظة، وهكذا من أوّله إلى آخره.

إنّ بداية العناية بضبط كلمات القرآن كانت في آخر عهد الصّحابة وكبار التّابعين، فضبطوا الشكل المبيّن لإعرابها، ووضعوا النقاط على حروفها ليزول إمكان التصحيف فيها، ثم أحدثوا نقطا عند منتهى الآي لبيان رءوسها وفواصلها ومعانيها، ووضعوا علامات لأخماس القرآن وأعشاره.

وتلك عناية لم تقع لكتاب قط في القديم ولا في الحديث، وكفى عناية وضبطا لهذا الكتاب أنهم قد وضعوا لكلّ جانب من جوانبه مؤلفات عدّة تختص بضبطه، فألّفوا في رسمه، وألّفوا في إعجامه، وألّفوا في فواصله وعدّ آياته، وألّفوا في تغاير قراءاته، وما يقبل منها مما لا يُقبل، وكيفيّة النّطق به وتجويده، وألّفوا في وقفه وابتدائه، وألّفوا في معرفة غريبه ومبهماته، وغير ذلك من أصناف العناية مما يطول ذكره، فهل وقعت عينٌ، أو طرق سمعٌ مثل هذه العناية ومثل هذا التحقيق والضبط البالغ في نقل هذا الكتاب الكريم؟!

المبحث الثاني:- مظاهر ضبط النصوص وتحقيقها في نقل السنة النبوية.

ترجع أهمّية فن الضبط واهتمام المحدِّثين به إلى ما شرطوه لصحة النّقل من شروط فقالوا: يشترط لصحّة النقل اتصال السّند بنقل العدول الضابطين (ضبط الصدر وضبط السطر) من غير شذوذ ولا علة.

والذي يخص هذا الفن من هذه الشروط كلها هي صفة ضبط الكتاب؛ أي تثبّت الراوي وتحرّيه فيما يكتب من حسن خط، ودقة نقل، وندرة تصحيف أو وهم، ومقابلة، وغير ذلك مما سيأتي ذكره.

وسنمهِّد للكلام عن ذلك بالردّ على فِريتين أُلصقتا بالمحدّثين القدماء؛

إحداهما دعوى تأخر عهد كتابة الحديث وتأخر عملية النّقد،

والثانية دعوى قصور منهجهم النّقدي على جانب السند دون المتن، ثم أذكر في النقطة

الثالثة بعض التجليات العملية لمفاهيم المصطلحات الحديثية والحديثة في فن تحقيق النصوص وضبطها في ممارسات المتقدمين من أهل الحديث:-

أولا:- بداية كتابة السنّة ونقدها.

يتردّد على كثير من الألسنة —عن حسن نية أو ربّما عن سوء نية- ما زعمه المستشرقون من أن الحديث بقي مائتي سنة غير مكتوب، ثم قرر المحدثون -بعد هذه المدة الطويلة- جمعه، وصاروا يأخذون عمن سمعوا الأحاديث دون تمييز، ونكتفي لرد تلك الدعوى تقرير ما يأتي:

(أ)- إن تدوين الحديث قد بدأ منذ العهد الأول في عصر النبي(صلى الله عليه وسلم)، وقد شمل قسماً كبيراً من الحديث، والمطالع للكتب المؤلفة في رواة الحديث يجد نصوصا تاريخية ثابتة، مبثوثة في تراجمهم، تثبت كتابتهم للحديث بصورة واسعة جداً، تدل على انتشار التدوين وكثرته البالغة، في عصر الصحابة والتابعين، ولا يغرّنك استشهادهم بما ورد من النهي عن كتابة الحديث في عهده (صلى الله عليه وسلم)، فإنّ كتابة الحديث ثابتة الوقوع بين يديه وبأمره

وإذنه، وقد خلص العلماء في توجيه ذلك التّعارض إلى أنّ النهي لم يكن عامّا، وكان مؤقتا، وأن النهي كان لسبب؛ وهو توجيه جمهور الصّحابة الكرام **(رضي الله عليهم)** إلى العناية بالقرآن أوّلا، ثمّ جاءت الرخصة العامّة بعد ذلك.

ويمكننا أن نقطع في ذلك بدليلين أوّلهما ما صحّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن كان يقول:" كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنّك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله(صلى الله عليه وسلم) ورسول الله(صلى الله عليه وسلم) بشرٌ يتكلّم في الغضب والرضا فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله(صلى الله عليه وسلم) فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منّي إلا حق."(٣٣)

وأما الدليل الثاني؛ فهو ما ذكرته كتب التّراجم والرجال من صحف مأثورة عن بعض الصحابة والتابعين؛ فمن ذلك صحيفة عمر بن الخطاب(٣٤)، وصحيفة عليّ بن أبي طالب(رضي الله عنه) المشهورة التي أخرجها لمن سأله "هل خصه النبي(صلى الله عليه وسلم) بشيء" فأخرجها وفيها الكلام عن فكاك الأسير، وصحيفة همام بن منبّه عن أبي هريرة المروية في الصحيحين وغيرهما، وصحيفة جابر بن زيد، وصحيفة نافع مولى ابن عمر...وغير ذلك كثير.

(ب)- إن تصنيف الحديث على الأبواب في المصنفات والجوامع مرحلة متطورة متقدمة كثيراً في كتابة الحديث، وقد تم ذلك قبل نهاية القرن الثاني للهجرة بكثير، بل إنه قد تم في أوائله، بين سنة (١٣٠-١٢٠هـ)، والشاهد عليه أن هناك جملة من هذه الكتب مات مصنفوها في منتصف المائة الثانية، مثل جامع معمر بن راشد (ت١٥٤هـ) وجامع سفيان الثوري (ت١٦١هـ) وابن جريج (ت١٥٠هـ) وغيرها كثير.

(ج)- إن عملية نقد الأسانيد لم تتأخر كما يعتقد البعض إلى ما بعد القرن الثاني، وإنّما الثابت سؤال الصحابة عن الرجال بُعيد وقوع الفتنة سنة ٣٥ هجرية لحراسة السنّة؛ ففي صحيح مسلم عن ابن سيرين قال:" لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعة الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنّة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم."(٣٥)

ثانيا:- عناية المحدّثين بالمتن.

لقائل أن يقول: لا نجادل في كون المحدّثين قد أبدوا عناية لا نضير لها بأسانيد ما ينقلون من آثار، غير أن هذا الجانب شكليّ فقط، وقد أهملوا ما يدعوه المعاصرون بالنّقد الداخلي، فكثير مما سلم سنده من النقد لا يسلم مم منطق العقول السّليمة، وهي وجهة اعتنى بها المستشرقون في نقد المتون ، وشنّعوا على المحدّثين جمودهم في جانبها.

والحق أن القوم ليسوا بأهل علم في الحديث، ولا خبرة لهم بدقيق مباحثه؛ لأنّهم نظروا في موضوع هذا العلم نظرة المستفهم أنه علم وُضع للبحث في أحوال السند والمتن.

ثم لو فتحوا أيّ كتاب في مصطلح القوم لوقفوا على شروطهم في الحكم بصحّة الحديث أو حسنه، ومنها وأن لا يكون الحديث شاذّا ولا معلّلا، ومعلوم عند المحدّثين جواز وقوع كلٍّ من الشذوذ والعلة في السند، أو في المتن، أو فيهما معا.

ثمّ إنّ المحدّثين قد قرّروا أنْ لا تلازم بين صحّة السند وصحّة المتن، فقد يصح السند ولا يصح المتن، وقد يصح المتن وسنده ضعيف.

والحق أن الذي عابه المستشرقون على المحدّثين من انعدام وجود ما أسموه بالنقد الداخلي في جهودهم كان أوّل علوم الحديث وجوداً، في عصر الصحابة حينما كان الناس على العدالة لا يكذبون، فكان أحدهم يسأل علماء الصّحابة عما لم يعقله من معانٍ أشكلت على فكره.

وفي كل الأحوال فإنّ تاريخ الأمّة مليء بمثل ما ادّعاه هؤلاء من الاعتماد غلى النّقد الداخلي، الذي يهمل نقد السند، وتاريخه معروف في تراث المعتلة الفكري، الذي تمرّسوا في ردّ كثير من الأحاديث المتواترة بالمعقول، لا لشيء إلا لأنها لا توافق ما ألفته عقولهم المحدودة، فهم أولى من هؤلاء بأن يُنسب إليهم هذه المنهج القاصر، وأما المحدّثون فقد كان منهجهم متوازنا وشاملا للوجهتين نقد السند ونقد المتن، أو النقد الداخلي والنقد الخارجي، ولا يصلح الاستغناء بأحدهما عن الآخر.

المبحث الثالث:- تجليات مفاهيم مصطلحات علم التحقيق في المُمَارسات القديمة للمحدّثين.

لقد تجلّت ظاهرة الضّبط عند المتقدّمين من أهل الحديث، في تعاملاتهم تطبيقيا مع النصوص والنّقول، قبل جمع تلك القواعد في كتب المصطلح، وهذه بعض تلك المظاهر:

(أ)- اشتراطهم الضبط في المحفوظ والمكتوب معا؛ أي ضبط الصّدر لمن كان معتمدا على حفظه، وضبط الكتاب لمن كان معتمدا في التبليغ على ما كتب، وقد كثر المعتمدون على كتبهم في الرواية، لا لقلّة الحفظ، وإنّما لكثرة ما جمعوا من الأحاديث، ولطول العهد بهم، وتورّعا من أن يقع منهم وهم في حرف أو لفظ فيدخلوا فيمن كذب على النبيّ(صلى الله عليه وسلم)، وقال عنه بغير بيّنة.

(ب)- ومن ذلك أنّهم قد عدّوا في طرق التحمّل: المكاتبة، والوَجادة، والمناولة، والقراءة على الشيخ، ولا يخفى أنها تحتاج إلى متن مكتوب، يتوجب التحقق مما كُتب فيه.

(ج)- ومن ذلك انتباه علماء الحديث إلى ما لم ينتبه إليه غيرهم من السابقين أو اللاحقين؛ وهو **تخصيصهم الروايات المكتوبة بشروط الحديث الصحيح**، وهي أن تجد على المخطوط الحديثيّ تسلسل سنده من راوٍ إلى آخر حتى يبلغ مؤلفه، وتجد عليها إثبات السماعات، وخط المؤلف، أو الشيخ المسمِع، الذي يروي النسخة عن نسخة المؤلف أو عن فرعها.

(د)- ومن ذلك أيضا **عملهم بالمعارضة الشفهية والكتابية أو بهما معا**، وقد أورد العلماء بعض الآثار المرويّة عن السلف في شأن المقابلة، أَقْدمُها ما رووه بأسانيدهم عن هشام بن عروة أنّه قال:" قال لي أبي: كتبت؟ قال: قلت نعم. قال: عارضت؟ قلت: لا. قال: لم تكتب."(٣٦) وأسند الخطيب في الكفاية مثل هذا القول إلى القعنبي.(٣٧)

وذكروا أيضا بأسانيدهم عن يحيى بن أبي كثير أنّه كان يقول:"من كتب ولم يعارض كان كمن خرج من المخرج ولم يستنج."(٣٨) ونقل الخطيب بسنده عن الأخفش أيضا قوله:" إذا نسخ الكتاب ولم يعارض، ثم نسخ ولم يعارض خرج عجميا."(٣٩)

فعملية المقابلة -إذن- عريقة في تقاليد كتابة الحديث وضبطه عند نقلة الآثار من المسلمين، ترجع -على ما بين أيدينا هنا- إلى عصر التابعين على أقل تقدير.

وعلى ذلك قرّر علماء النّقل ضرورة المقابلة أو المعارضة للتحقّق من صحّة النقل.

(هـ)- ومن ذلك عملهم في إصلاح السقط أو السهو أو اللحن، واستدلالهم بوجود الضّرب والتّخريج في الكتاب على صحته؛ فمن ذلك ما نقله الخطيب البغدادي في جامعه بسنده عن الإمام الشافعي أنّه قال:"إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فاشهد له بالصحّة."(٤٠) وفيه الإشارة إلى تقدّم عمل العلماء بذلك. ونقل الخطيب بسنده عن إبراهيم الحربي أنّه كان يقول:" لزمت أحمد بن حنبل سنتين، فكان إذا خرج يحدثنا يخرج معه محبرة مجلدة بجلد أحمر وقلماً؛ فإذا مر بالسقط في كتابه أصلحه، تورعا أن يأخذ من محبرة أحد شيئا."(٤١) وممن أُثر عنه فعل ذلك أيضا خلف بن هشام البزار(ت٢٢٩هـ)، فكان يقول:" قلمي على كتابي من أربعين سنة أصلح فيه."(٤٢)

ونُقل عن أبي زرعة الرازي(ت٢٦٤هـ) أنّ كان يقول:" أنا أصلح كتابي عن أصحاب الحديث إلى اليوم."(٤٣)

وقد أنشد الخطيب في ذلك بيتا يرويه لمحمد بن عبد الملك الزيات يصف دفترا:

وأرى وُشوما في كتابك لم تدع   شكّا لمرتاب ولا لمفكر

وغير هذا كثير يتعذّر استقصاؤه.

وحسبك بيانا لحال السّلف في التحقّق من المرويّات ما رووا في رحلة أحدهم الشهر لأجل التّحقّق والتحرّي في حديث واحد وما قصّة جابر بن عبد الله وسفره إلى الشام في حديث واحد بمستغرب(٤٤)؛ ذلك لأن المسألة عندهم كانت دينا وليست هواية أو حرفة يرتزقون بها.

ويكفي أنّ علم مصطلح الحديث ذاته إنّما وُضعت مسائله قبل استقلاله كعلم، وإنّما كان مقصودهم منه ضبط عملية انتقال النّصوص انتقالا صحيحا من السلف إلى الخلف، فأسّسوا بذلك منهجا فريدا ومُحكما، لتمحيص الروايات، والمستندات الشفهية والمكتوبة على السّواء.

وهذه إلماعة عجلى لأهم مباحث فنّ التحقيق في نقل النصوص وضبطها في كتب مصطلح الحديث من عهد الرامهرمزي إلى عصر ابن الصلاح، أوجزتها في الجدول الآتي:

مجموع مباحث الضبط والتحقيق في أهمّ كتب مصطلح الحديث إلى عصر ابن الصلاح(ت٦٤٣هـ)، بعضها ظاهر تعلّقه بفنون الضبط والتحقيق، وبعضها الآخر وسائل مهمة لخدمة هذا الفنّ	
الرامهرمزي؛ الحسن بن عبد الرحمن (ت٣٦٠هـ) – (المحدّث الفاصل بين الراوي والواعي)	
الفصل بين الحديثين بدائرتين	كيفية معالجة الخطأ
الحك والضرب	النّقط والشّكل
التخريج على الحواشي	التبويب والتصنيف
كيفية إصلاح المكرّر	التّصحيفات في المتون وكيفية معالجتها
الحاكم أبو عبد الله النيسابوري (ت٤٠٥هـ) – (معرفة علوم الحديث)	
التبويب والتصنيف	النظر في أصول المحدّث
التّصحيفات في المتون وكيفية معالجتها	معرفة الألفاظ الغريبة في المتون
معرفة ألقاب المحدثين	زيادات الألفاظ في المتون
ضبط الأسماء والمتشابه	العرض على العالم

الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) – (الكفاية في قوانين الرواية)، و(الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع)	
المقابلة وتصحيح الكتاب وكيفية النسخ من الأصل	تحسين الخط وتجويده
ما يجب ضبطه واحتذاء الأصل فيه	ما يُستحب أن يُبتدأ به في الكتابة من بسملة وحمدلة
حكم تغيير عن النبي إلى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)	تقييد الأسماء بالشكل والإعجام لتلافي التصحيف والإيهام
كيفية التعامل مع الخطأ أو التصحيف	وجود الضرب والتخريج في الكتاب علامة على صحته
حكم إصلاح الكتاب بزيادة الحرف الواحد أو بنقصانه	ذكر أخبار بعض من صحّف في الأحاديث، أو في القرآن
إبدال حرف بحرف	المعارضة بالمجلس المكتوب وإتقانه
وجوب إصلاح سقوط الكلمة التي لا بد منها	إصلاح ما أفسد منه زيغُ القلم وطغيانه
حكم إلحاق الاسم المتيقن سقوطه في الإسناد	حكم استدراك من فاته مجلس السماع، وهل تجبره الإجازة
حكم استدراك النقص من كتب أخرى	الرحلة في الحديث إلى البلاد النائية للقاء الحفاظ بها
الموقف مما في الكتاب من غريب اللغة هل يبينه أم لا	فضل الجمع والتصنيف، ومبدأ حركة التأليف والتبويب
حكم رواية من سمع من غير أصله	وصف الطريقتين المتبعتين في تصنيف الروايات
كراهة رواية الشيخ من كتاب الطالب إذا لم يحضر الأصل	ما أثر في تبويب الأحاديث، وترتيب المسانيد
ما يتعلق بذلك من أنواع الأدب	الأسماء والكنى والرجال والتصحيفات
آلات النسخ كالحبر والمحبرة والكاغد والورق	//
ابن عبد البر (ت٤٦٣هـ) – (جامع بيان العلم وفضله)	
معارضة الكتاب أو مقابلته	الأمر بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث.
القاضي عياض (ت٥٤٤هـ) – (الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السّماع)	
التقييد بالكتاب والمقابلة والشّكل والنّقط والضبط	الضّرب والحكّ والشّق والمحو
التخريج والإلحاق للنقص	إصلاح الخطأ وتقويم اللحن والاختلاف في ذلك
التصحيح والتّمريض والتّضبيب	تحري الرواية والمجيء باللفظ
ضبط اختلاف الروايات والعمل في ذلك	//
أبو عمرو ابن الصلاح (ت٦٤٣هـ) – مقدمة ابن الصلاح (معرفة أنواع علوم الحديث)	
ضرورة ضبط الملتبس بالشكل والإعجام، وخاصة الأسماء.	ذكر الخلاف في التعامل مع اللحن أو التحريف.
كراهة التفريق بين لفظ عبد وما أضيف له في سطرين.	معرفة زيادات الثقات وحكمها.
المحافظة على الصلاة والتسليم على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند ذكره.	حكم تغيير (عن النبي) إلى (عن رسول الله) (صلى الله عليه وسلم) أو العكس
مقابلة الكتاب بأصل السماع وكتاب شيخه الذي يرويه عنه وإن كان إجازة.	وجوب التنبيه على ما كان فيه بعض الوهن من الروايات كروايته عن مذاكرة أو حال المذاكرة وغيرها.
كيفية بيان الروايات المختلفة، واختلاف الألفاظ، والزيادات، وهو ما يقابله اليوم مسألة اختلاف النسخ.	الزيادات المبيّنة لما في النّص؛ كبيان نسب أو كنية أو غير ذلك.
ذكر سند الكتاب أوله، و توثيق مجالس السماع.	معرفة المدرج في الحديث.

كراهية الخط الدقيق.	كيفية سماع الحديث وتحمله وصفة ضبطه.
لا ينبغي أن ينفرد بمصطلحات لا يفهمها غيره.	معرفة المصحّف من أسانيد الأحاديث ومتونها.
الفصل بين كل حديثين بدارة تفصل بينهما.	معرفة الأسماء والكنى.
كيفية تخريج الساقط في الحواشي ويسمي اللّحق.	معرفة كني المعروفين بالأسماء دون الكنى
العناية بالتصحيح والتضبيب والتمريض.	معرفة ألقاب المحدثين ومن يذكر معهم.
الضرب أو الحك أو المحْو أو غير ذلك.	المؤتلف والمختلف من الأسماء والأنساب وما يلتحق بها.
كتابة الرموز والمختصرات.	معرفة المتفق والمفترق من الأسماء والأنساب ونحوها
حكم رواية من قرأ كتابا على شيخ من غير كتابه المقابَل الذي عليه سماعه، بأن استعاره أو اشتراه.	معرفة المبهمات.
إذا وجد الحافظ في كتابه خلاف ما يحفظه، ماذا يقدّم؟	معرفة تواريخ الرواة.
ينظر المواضيع المذكورة في فهارس محتويات وعناوين الأنواع الحديثية للكتب المذكورة	

وبعد هذا فإنّ النظر في تاريخ تدوين العلوم الإسلامية، والتأمّل في تلك النّقول يجعلنا نجزم بأن فنّ الضبط والتحقيق في كتابة النصوص ونقلها قد نشأ وتأسّس بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، ثمّ تطوّر في عصر الصّحابة حسب ما دعت إليه الحاجة، ثمّ استوى على أشدّه وأخذ مداه لدى خلفهم، بحسب الحاجة التي اقتضاها الموضوع في كل عصر.

خـاتمة:

هذه إلمامة عجلى بما أُثر عن سلفنا في مجال ضبط النصوص وتحقيقها، ونقل العلوم والمعارف إلى من جاء بعدهم، أرجو أن أكون قد وفقت في عرضها بما يناسب المقام، وهذه خلاصة عما سلف ذكره من نتائج:

- لقد تأسست عملية ضبط النصوص والتحقيق في نقلها عند المسلمين مبكراً، بداية من كتابة القرآن في عهد النّبي(صلى الله عليه وسلم) إلى نَسْخِه في حلّته النهائية في عهد عثمان(رضي الله عنه)، وكلّ ما بعده كان من قبيل التحسينيات والاحترازات؛ كالذين قاموا بنقطه وشكله وبيان فواصله وأجزائه، ثمّ احتاطوا له بأن قاموا بتأليف الكتب في بيان دقائق رسمه، وعدد حروفه وكلماته وآياته وسوره وأجزائه، واختلاف قراءاته، وكلّ صغيرة وكبيرة تتعلّق بضبطه، وقد تجلّى في تلك العمليّة من مظاهر الضّبط أرقى ما يمكن أن يُتصوّر؛ مما لا نظير له قي التّاريخ القديم أو الحديث، غير أنّ هذه المسيرة بلغت مداها على يد المحدّثين، ولذلك ما يبرّره؛ فقد تكفّل الله لهم بحفظ القرآن الكريم بلفظه ومعناه، ولم يقع التصريح بذلك بخصوص السنّة، فأدرك المحدّثون ضرورة إيجاد المنهج اللازم لحفظها، واختراع القناة الآمنة لتبليغ تلك التعاليم صافية كما جاءت.
- لقد كانت عملية ضبط الكتب في أوّل الأمر عملا احترازيا، يُستعان به احتياطا للسنّة أن يقع فيها وهم، أو يُدخل فيها ما ليس منها، ثمّ زادت العناية بها لكثرة ما جمع من السنّة، تورّعا من المحدّثين أن يؤدوا ما سمعوا بزيادة حرف أو نقصانه، فيقعوا في المحذور؛ وعليه يمكنا أن نقرّر بيقين ما يأتي:-

- إن فن تحقيق النصوص وضبطها نشأ عند المسلمين، واكتملت أسسه في الصدر الأول من تاريخ هذه الأمّة، وقد أظهر علماء الحديث النبوي الشريف عناية خاصّة بتطوير تلك الأسس، للوصول بذلك المنهج إلى أعلى درجات الدقّة.
- إنّ كل ما ادّعاه الغربيون من ابتكار في مباحث فنّ تحقيق النصوص موجود في كتب مصطلح الحديث، وكتب علوم القرآن، بأشكال مطابقة، أو مقاربة، وإنّ جميع تلك المباحث الموجودة في تلك الكتب، كانت موجودة وجودا واقعيا فيما قبل عصر الاصطلاح، ولأكثرها أصولٌ في الصّدر الأول من تاريخ العلوم الإسلامية.
- إن ما فعله ابن الصّلاح –وهو البرزخ بين المتقدمين والمتأخرين من أهل الاصطلاح- هو جَمْعُ مجهودهم، وتلخيصه تلخيصا حسنا، وقد يزيد عليه في بعض المباحث وقد ينقص، مع الإشارة في كثير من المواقع، أو ترك ذلك كعادة المتقدّمين في حرّية التّصرّف فيما اشتهر من نصوص غيرهم، ومن محاسن فعل ابن الصلاح في مقدّمته تلطيفه كثيرا من شدائد عياض في الإلماع، ولم يكن في ذلك متساهلا، وإنّما أورد الأوجه الأخرى التي تركها عياض، ورجّح منها ما يصلح ترجيحه، ويناسب وقت الرواية زمن ابن الصلاح.
- لقد بلغ بالمحدثين أن جعلوا للعلوم والمعارف نسبة وسلسلة نسب، وقد أفاد ذلك جملة من العلوم خصوصا علوم التاريخ ومناهج النقد والتحقيق في نقل الأخبار والمعارف، وغيرها.

فما الذي بقي –بعد هذا كلّه– للغربيين ليدّعوه من مباحث هذا العلم...وهو بهذا القدر من العناية والأصالة والكمال عند علماء المسلمين؟! ربّما هو شيء أغفلنا ذكره من علامات التّرقيم، والفهارس العلمية، وأساليب الطباعة الحديثة، التي ما كان المسلم –يوما– بحاجة إليها ليفهم ما بين يديه، إلا حين فترت الهمم، وانحطّت الأذواق، وقلّ الفهم، فاحتاج الكبير إلى ما يحتاج إليه الصّغير من وسائل الإيضاح، والفصل بين المعاني، وليس ذلك من شأن منْ تقدّم من علماء هذه الأمّة... لقد ظلّ أولئك القوم قرونا طوالا يقرءون الكتب الطوال، ويرْوُونها لتلامذتهم دون حاجة إلى فاصلة أو نقطة، وهذا يثبت كون هذه المستحدثات لا تخرج عن مرتبة التحسينيات، ولسنا ههنا بصدد ازدراء ما أتى به العصر الحديث من جديد، فإنّ للحداثة مبتكراتها ومحاسنها، ولكننا بصدد إحقاق حقٍ، وردّ افتراء انتشر في بيئتنا واستشرى، وأكثر النّاس يردّد تلك المقالة الظالمة دون علمٍ بخلفيّاتها الهدّامة، فقد كان هذا المنهج صمام الأمان لوصول تعاليم الدين الإسلامي الحنيف إلينا.

الهوامش والإحالات:

(١) هذا البحث مستخلص من كتاب قيد التأليف لم يتمّ نشره بعد، عسى أن يخرج قريبا.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه من حديث عثمان (رضي الله عنه). **صحيح البخاري**: دار ابن كثير، اليمامة/ بيروت، ط٣/ ١٤٠٧–١٩٨٧، تحقيق د. مصطفى ديب البغا: ١٩١٩/٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه عن عائشة(رضي الله عنها). **صحيح مسلم**: ٥٤٩/١، برقم (٧٩٨)، دار إحياء التراث العربي/ بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، وأخرجه البخاري في صحيحه معلّقا في باب قول النبي (صلى الله عليه وسلم) الماهر بالقرآن مع السّفرة الكرام البررة وزينوا أصواتكم بالقرآن، **صحيح البخاري**: ٢٧٤٣/٦.

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه عن عبد الله بن عمرو، وقال: هذا حديث حسن صحيح: **جامع الترمذي**: ٥/ ١٧٧، برقم(٢٩١٤). وهو في **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أحمد بن حنبل؛ أبو عبدالله الشيباني(٢٤١-١٦٤): مؤسسة قرطبة/ مصر: ١٩٢/٢، برقم(٦٧٩٩).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه عن ابن مسعود في باب ما جاء فيمن قرأ حرفا من القرآن ما له من الأجر، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه...: **الجامع الصحيح**، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي. تحقيق كمال يوسف الحوت. دار الكتب العلمية / بيروت - لبنان. ط (١) / ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م: ١٧٥/٥برقم(٢٩١٠).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمرو في باب ما ذكر عن بني إسرائيل: **صحيح البخاري** ١٢٧٥/٢، برقم(٣٢٧٤).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي بكرة في باب قول النبي (صلى الله عليه وسلم) لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض. **المصدر نفسه**: ٢٥٩٣/٦ برقم(٦٦٦٧).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه معلّقا في باب العلم قبل القول والعمل. **المصدر نفسه**: ٣٧/١، وأبو داود في سننه عن أبي الدرداء في باب الحث على طلب العلم. **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي(٢٧٥-٢٠٢)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: دار الفكر/ دمشق: ٣١٧/٣ برقم (٣٦٤١).

(٩) أخرجه البخاري في صحيحه عن الزبير بن العوام في باب إثم من كذب على النبي(صلى الله عليه وسلم).**المصدر نفسه**: ٥٢/١ برقم (١٠٨)، ومسلم في صحيحه عن أبي هريرة، في باب تغليظ الكذب على رسول الله(صلى الله عليه وسلم). **صحيح مسلم**: ١٠/١ برقم(٣).

(١٠) أخرجه الترمذي في جامعه عن المغيرة بن شعبة في باب ما جاء فيمن روى حديثا وهو يرى أنّه كذب وقال بأنه حديث حسن صحيح. **جامع الترمذي**: ٣٦/٥ برقم(٢٦٦٢).

(١١) **العسب**: جمع عسيب، وهو جريد النخل بعد تجريده من الخوص، يكتب على الطرف العريض منه. ينظر **لسان العرب**، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري. الدار المصرية للتأليف والترجمة: ٥٩٩/١. اللِّخاف: حجارة بيض عريضة رقاق. ينظر **لسان العرب** ٢٨/٨، و٣١٥/٩. الرقاع: جمع رقعة وتكون من الجلد أو من الورق. ينظر **مختار الصحاح**١٠٦/١. الأقتاب: جمع قتب، وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. ينظر **لسان العرب**٦٦٠/١-٦٦١. الكرانيف: جمع كرنافة، وهي أصول سعف النخل الغليظ الملتزق بجذوعها. ينظر **لسان العرب**٢٩٧/٩. الأكتاف: جمع كتف، وهو العظم الذي للبعير أو الشاة، كانوا إذا جف كتبوا عليه.

(١٢) **البرهان في علوم القرآن**، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله(و٧٤٥-ت٧٩٤)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: دار المعرفة/ بيروت، ١٣٩١هـ: ٢٣٤/١-٢٣٥.

(١٣) **صحيح البخاري** في باب جمع القرآن: ١٩٠٧/٤، و١٧٢٠/٤، وينظر **المصدر نفسه**:٢٣٣/١-٢٣٤.

(١٤) **المصدر نفسه**:٢٣٦/١.

(١٥) **المصدر نفسه**:٢٣٥/١.

(١٦) **المصدر نفسه**:٢٣٥/١-٢٣٦.

(١٧) **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير أبو الفداء، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢/ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م: ١/ ٣٧٨.

(١٨) **البرهان في علوم القرآن**، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركاؤه، ط١/ ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧م: ٢٣٥/١.

(**١٩**) ينظر أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، **المحكم في نقط المصاحف**: دار الفكر/دمشق، ط٢/١٤٠٧هـ، تحقيق د. عزة حسن: ص١.

(**٢٠**) **المصدر نفسه**: ص٢.

(**٢١**) ينظر **المصدر نفسه**: ص٥-٦.

(**٢٢**) **المحكم في نقط المصاحف** ص: ٦.

(**٢٣**) **المصدر نفسه**: ص ٦.

(**٢٤**) **المصدر نفسه** :ص ٦.

(**٢٥**) ينظر **المصدر نفسه**: ص٤ وص٦-٧.

(**٢٦**) **المصدر نفسه**: ص٧.

(**٢٧**) **المصدر نفسه**: ص٢-٣.

(**٢٨**) **المحكم في نقط المصاحف**: ص٢-٣.

(**٢٩**) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس في **المسند**: ٢٧٥/١ برقم(برقم٢٤٩٤)، و٣٢٥/١برقم (٣٠٠١). قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح. **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر . دار الكتاب العربي، بيروت / لبنان. ط٢ / ١٩٦٧م: ٢٨٨/٩.

(**٣٠**) أخرجه البخاري في صحيحه عن عائشة (رضي الله عنها) في باب كيف بدأ الوحي..**صحيح البخاري**: ٤/١.

(**٣١**) أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط** عن زيد بن ثابت: ٢٥٧/٢برقم(١٩١٣)، قال الهيثمي: "رجاله موثوقون إلا أنّ فيه (وجدت في كتاب خالي) فهو وجادة." **مجمع الزوائد**: ١٥٢/١.

(**٣٢**) البغوي، **شرح السّنة**: ٥٢٥/٤-٥٢٦.

(**٣٣**) أخرجه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو من مسنده(٦٥١٠): ١٩٢/٢، وأبو داود في سننه، في باب كتاب العلم(٣٦٤٦): ٣١٨/٣، والحاكم في **مستدركه على الصحيحين**(٣٥٩): ١٨٧/١، وغيرهم؛ كلهم عن عبد الله بن عمرو.

(**٣٤**) وجدها عبد الله بن عمر في قائم سيف أبيه وفيها: ليس فيما دون خمس من إبل صدقة. ينظر **الكفاية في علم الرواية**، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المكتبة العلمية/ المدينة المنوّرة، تحقيق إبراهيم المدني:ص٣٥٤.

(**٣٥**) أخرجه مسلم في صحيحه في أول باب بيان أن الإسناد من الدين. **صحيح مسلم**:١٥/١.

(**٣٦**) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه عن إسماعيل بن عيّاش؛ أبو بكر؛ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي(ت٢٣٥هـ)، **مصنف ابن أبي شيبة**: ٣٣٧/٥، مكتبة الرشيد/ الرياض، ط١/ ١٤٠٩، تحقيق كمال يوسف الحوت، وأخرجه الرامهرمزي في **المحدث الفاصل**، دار الفكر/ بيروت، ط٣/١٤٠٤، تحقيق د. محمد عجاج الخطيب: ص٥٤٤، والخطيب البغدادي في **الكفاية** ص: ٢٣٧، وابن عبد البر في **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق أبي الأشبال الزهيري: دار ابن الجوزي/السعودية، ط١/١٤١٩-١٩٩٨: ٣٣٦/١ بقريب من هذا اللفظ.

(**٣٧**) ذكر عن أبي محمد افلح بن بسام قوله:" كنت عند القعنبي، فكتبت عنه، فقال لي: كتبتَ؟ قلت: نعم. قال: عارضت؟ قلت:لا. قال:لم تصنع شيئا." **الكفاية** ص: ٢٣٧.

(**٣٨**) أخرجه الرامهرمزي في **المحدث الفاصل**: ص٥٤٤ بهذا اللفظ، والخطيب في **الكفاية**: ص٢٣٧، وابن عبد البر في **جامعه** ٣٣٧/١؛ كلاهما بقريب من هذا اللفظ، وكلهم أخرجه عن أبان بن سعيد العطار، وقد نسبه ابن الصلاح القول بمثله للإمام الشافعي انظر

مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، الإمام أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد عويضة: ط١٤١٦/١، دار الكتب العلمية/ بيروت: ص١٢٥.

(٣٩) الكفاية: ص٢٣٧-٢٣٨.

(٤٠) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، مكتبة المعارف/ الرياض، ط:١٤٠٣، تحقيق: د. محمود الطحان: ٢٧٩/١.

(٤١) الكفاية: ص٢٥١.

(٤٢) المصدر نفسه: ص٢٥١.

(٤٣) المصدر نفسه: ص٢٥١.

(٤٤) روى الخطيب بسنده عن جابر بن عبد الله قال بلغني حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم اسمعه فابتعت بعيرا فشددت رحلي وسرت شهرا حتى قدمت الشام فأتيت عبد الله بن انيس فقلت للبواب قل له جابر على الباب فأتاه فقال جابر ابن عبد الله فأتاني فقال لي فقلت نعم فرجع فأخبره فقام يطأ ثوبه حتى لقيني فاعتنقني واعتنقته فقلت حديث بلغني عنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في القصاص لم أسمعه فحسبت ان تموت او اموت قبل ان اسمعه فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يحشر الله تعالى العباد او قال الناس عراة غرلا بهما ..." **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**: (٢٢٥/٢).